

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: 17 - 20]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ
فَلْيَنْظُرْ إِلَى
عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ
فِي خَلْقِهِ

لَمَّا حَكَّمَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَجِيءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَسَّمَ أَهْلَ الْقِيَامَةِ إِلَى قَسْمَيْنِ: الْأَشْقِيَاءَ وَالسَّعْدَاءَ، وَوَصَفَ أَحْوَالَ الْفَرِيقَيْنِ بِأَنَّ الْأَشْقِيَاءَ يَكُونُونَ فِي غَايَةِ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَأَنَّ السَّعْدَاءَ يَكُونُونَ يَوْمئِذٍ مُسْتَبَشِرِينَ بِبَادِيَةٍ عَلَى وَجْهِهِمْ عِلَاقُ الْمَسْرَةِ، وَعَلِمَ أَنَّ لَا سَبِيلَ إِلَى إِيْمَانِ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ إِلَّا بِإِثْبَاتِ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ، أَتَبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ الدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ خَلْقِهِ، لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْجَاحِدِينَ الْمُنْكَرِينَ^(١).

لَأَنَّ فِظَاعَةَ ذَلِكَ الْوَعْدِ الْمُتَقَدِّمِ تَجْعَلُ الْمَقَامَ مَقَامَ اسْتِدْلَالٍ عَلَى أَنَّهُمْ مُحَقَّقُونَ بِوُجُوبِ النَّظَرِ فِي دَلَائِلِ الْوَحْدَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ الْإِهْتِدَاءِ إِلَى تَصْدِيقِ مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ الْقُرْآنُ مِنَ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ، وَإِلَى الْإِهْتِدَاءِ إِلَى أَنَّ مَنْشَأَ النَّشْأَةِ الْأُولَى عَنْ عَدَمٍ بِمَا فِيهَا مِنْ عَظِيمِ الْمَوْجُودَاتِ كَالْجِبَالِ وَالسَّمَاءِ، لَا يُسْتَبَعَدُ فِي جَانِبِ قُدْرَتِهِ إِعَادَةُ إِنْشَاءِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ فَنَائِهِ عَنْ عَدَمٍ، وَهُوَ دُونَ تِلْكَ الْمَوْجُودَاتِ الْعَظِيمَةِ الْأَحْجَامِ، فَكَانَ إِعْرَاضُهُمْ عَنِ النَّظَرِ مَجْلِبَةً لِمَا يُجَسِّمُهُمْ مِنَ الشَّقَاوَةِ^(٢).

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿نُصِبَتْ﴾: (نصب) أصلٌ يدلُّ على إقامة الشيءِ إلى أعلى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 31 / 143، والراغب، تفسير الراغب: 30 / 136.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30 / 304.

قويًا متماسكًا أو شديدًا على وضع مستقيم دائم⁽¹⁾، فنصب الشيء إقامة وإهداف له في استواء⁽²⁾. ونصب الشيء: وضعه وضعا ناتئا كنصب الرمح⁽³⁾، والنصب: رفعك شيئا تنصبه قائما منصبا⁽⁴⁾. وتنصب فلان وانتصب: إذا قام رافعا رأسه. ومن الباب النصب: العناء، ومعناه أن الإنسان لا يزال منصبا حتى يعيي⁽⁵⁾. ومعنى ﴿نُصِبَتْ﴾: جعلت منصوبة قائمة ثابتة، لا تميل ولا تزول.

(2) ﴿سُطِحَتْ﴾: أصل (سطح) يدل على بسط الشيء ومدّه⁽⁶⁾، والسطح: سطحك الشيء على وجه الأرض؛ وسطح كل شيء: أعلاه الممتد معه⁽⁷⁾. وانسطح الرجل، امتد على قفاه⁽⁸⁾، والسطح: ظهر البيت إذا كان ممدودا مستويا، ومعنى ﴿سُطِحَتْ﴾ بسطت ومدت، والمعنى: بسطها للإقامة عليها والمشي في منابها.

❁ الغنى الإجمالي:

يقول تعالى أمرا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: أفلا ينظروا الناس إلى الإبل متفكرين في كيفية خلقها على هذا النحو العجيب؟ وإلى السماء كيف رفعت هذا الارتفاع العظيم؟ وإلى الجبال كيف أقيمت على هذه الهيئة الباهرة؟ وإلى الأرض كيف بسطها الله لتستقر عليه المخلوقات؟

فالله تعالى وجه الأنظار إلى عظيم صنعهِ وباهر قدرته؛ فأنكر على الكافرين صرفهم نظرهم عن خلق الإبل خلقا بديعا وعن رفع

في خلق
السموات
وغيرها عظيم
الدلائل على
قدرة الله على
البعث

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (نصب).

(2) ابن فارس، معاني اللغة: (نصب).

(3) الزاغب، المفردات: (نصب).

(4) الأزهرى، تهذيب اللغة: (نصب).

(5) ابن فارس، معاني اللغة: (نصب).

(6) ابن فارس، معاني اللغة: (سطح).

(7) الأزهرى، تهذيب اللغة: (سطح).

(8) الأزهرى، تهذيب اللغة، والزاغب، المفردات: (سطح).

السَّمَاءِ الَّتِي يُشَاهِدُونَهَا لَيَالٍ وَنَهَارًا كَيْفَ رُفِعَتْ رَفْعًا عَظِيمًا، وَعَنِ الْجِبَالِ كَيْفَ وُضِعَتْ وَضْعًا ثَابِتًا فَلَا تَمِيلُ وَلَا تَمِيدُ، وَعَنِ الْأَرْضِ كَيْفَ بُسِطَتْ وَمُهَّدَتْ لِلْخَلْقِ لِيُقِيمُوا عَلَيْهَا⁽¹⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

وجه الجمع بين (الإبل) و(السَّمَاء) و(الجبال) و(الأرض) دون غيرها:

خُصَّتْ الإبل بالذكر في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ من بين جملة الدوابِّ، كما خُصَّ السَّمَاءُ والجبال والأرض من بين جملة المخلوقات، مراعاةً للمخاطبين، فإنَّ الإبل كانت من أخصِّ دوابِّ أهل مَكَّةَ عليها كانوا يسافرون، وعليها كانوا ينقلون ما احتاجوا إليه، فذَكَرَ لهم ما يرون صباحًا ومساءً. وموضع أهل مَكَّةَ بين الجبال، فكانت لا تفارقهم الجبال، وكانت السماء من فوقهم والأرض من تحتهم؛ فخُصَّتْ هذه الأشياء بالذكر؛ لأنَّها موضع نظريهم، فهي أمام أعينهم أينما قلبوا النَّظَرَ؛ ليعتبروا بها، ويتدبَّروا⁽²⁾.

وفي ذكر أمَّهات المنافع للمُخاطَّبين تذكيرٌ لهم؛ فإنَّ المنافع المَجْعولة في الدَّوابِّ كُلِّها تجتمع في الإبل؛ لأنَّ الدَّوابَّ يُتَنَفَّعُ بظهرها وبضُرْعها وبصوفها وبلحمها ونسلها، فكل ذلك يوجد في الإبل؛ فصارت الإبل كالأنعام تصلح للمنافع المتخذة في الدواب، ثُمَّ إِنَّ عِظَمَ المنافع والبركات المعقودة فيها متصلةٌ بالسَّمَاء؛ ففيها جُعِلَتْ أَرْزَاقهم؛ وفيها عين الشمس التي بها مصالح الأغذية؛ وتراها مزينة بزينة الكواكب؛ فهي - أيضًا - كالأمِّ في المنافع، ومثلها الأرض؛ فإنَّها مأوى الخلق، وَقُدِّرَ فيها أَقْوَاتُ الخَلْقِ وأَرْزَاقهم، ومنها يخرج ما يتخذون منه اللباس. ثم بالجبال قوام الأرض، ولولاها لكانت

تخصيص
للمخاطبين بما
يعرفون؛ وبما
يُمثِّل سائر
النعم الربَّانية

(1) الألويسي، روح المعاني: 329 / 15.

(2) للتاردي، تأويلات أهل السُّنَّة: 511 / 10.

الأرض تميد بأهلها؛ فُخِّصَتْ هذه الأشياء بالذِّكْر للإشارة إلى عِظَمِ خلقها والانتفاع منها.

ولعل الحكمة في ذِكر هذه الأشياء المتباينة - على أنَّ هذا الوجه من الاستدلال غير مُختَصِّ بنوع دون نوع؛ بل هو عامٌّ في الكلِّ كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44]، ولو ذَكَر نوعاً أو نوعين وراعى بينهما المناسبة لم يكن كذلك، بل ذَكَر أموراً متباعدة جداً - للتنبية على أنَّ جميع الأجسام العلوية والسُّفلية، عظيمها وحقيبرها، صغيرها وكبيرها، متساوية في الدلالة على الصانع الحكيم⁽¹⁾.

بلادة الاستئناف في الآية:

جاءت جملة ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ استئنافاً مَسَوِّقاً لتقرير ما قُصِّلَ من حديث الغاشية وما هو مبنيٌّ عليه من البعث الذي هم فيه مختلفون، فجاءت جملة الاستئناف للاستشهاد على البعث بما لا يستطيعون إنكاره ممَّا هو مشاهد أمام أبصارهم⁽²⁾.

بلادة الاستفهام بالهمزة:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ للإنكار الواقعي والتوبيخ والتقريع⁽³⁾، بمعنى أنه إنكارٌ وتوبيخٌ للمشركين وتقريعٌ لهم؛ لإهمالهم النَّظَرَ في الحالِ إلى ما هو في غاية الوضوح من دَقَائِقِ صُنْعِ اللَّهِ في بعض مخلوقاته؛ ليفيد الإنكارُ انتفاء نظرهم نظر تدبُّر وانتفاع، بمعنى أنَّهم لا ينظرون إلى هذه الأشياء نظراً معتدّاً به؛ ففيه إيدانٌ بغفلتهم عن النَّظَر فيها. ويدلُّ الاستفهام على معنى التَّعْجِيب المُستفاد من سياق ذِكر ﴿كَيْفَ﴾؛ أي: التَّعْجِيب من عدم

النَّظَرُ الْمُعْتَدُّ بِهِ
المفِيدُ هُوَ نَظَرُ
الاعتبارِ والتدبُّرِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 144 / 31.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 150 / 9.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 150 / 9، والقنوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 337 / 20، والقنوي، فتح البيان: 206 / 15.

نظرهم واعتبارهم؛ فلو نظروا في هذه الأشياء لكان نظرهم فيها وتفكيرهم بها يُعرّفهم بوحدانية الله تعالى ولأقروا بالبعث وإثبات الرسالة، ونزع عنهم الإشكال، وتوضّح لهم ما اشتبه عليهم⁽¹⁾.

فائدة الفاء في ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾:

الإنكار على
مَن يُعرض عن
النَّظَرِ في دلائل
التَّوْحِيدِ

تحتمل الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ أن تكون للتفريع على ما تقدّم؛ وبيانه أنه لما تقرّر فيما نزل من القرآن أن أهل الشّقاء هم أهل الإشراك بالله فُرّع على ذلك الإنكار عليهم لإعراضهم عن النَّظَرِ في دلائل التَّوْحِيدِ عليهم؛ فالفاء في قوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ تفريعُ التَّعْلِيلِ على المُعَلَّلِ، فالمُعَلَّلُ هو إعراضهم عن النَّظَرِ في دلائل التَّوْحِيدِ وتفريعُ التَّعْلِيلِ هو الإنكار عليهم. وتحتمل أن تكون عاطفة على مُقدِّرِ مفهوم السِّياق وتقديرِ الكلام: (أَيْغفل منكرو الغاشية عن الأدلّة القاطعة على صحّة البعث ووقوعه فلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟)⁽²⁾.

وجه النَّفْيِ (لا):

أفادت (لا) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ نفْيَ نظرهم إلى الإبل كيف خلقت، والمُرَاد نفْيَ الحال غير المُنْقَطِعِ عن الماضي بقرينة السِّياق؛ فهم لم ينظروا في الماضي ولا ينظرون الآن.

سرُّ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ دلالةً وصيغَةً:

تجدّد الإنكار
عند عدم
الاعتبارِ

عُبرَ بِمُفْرَدَةِ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ والمُرَادُ به النَّظَرُ بالأبصار المورث نظَرَ الاعتبارِ إلى دقائق المنظور بقرينة مجيء الحال في قوله: ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، فالمقصود نظراً تدبّراً واعتباراً؛ لأنّه يُقال: (نظر إليه) بمعنى تأمّله، فليس مُجرّد النَّظَرِ

(1) للتأريدي، تأويلات أهل الشّعة: 512/10.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 150/9، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 236/20.

بالأبصار⁽¹⁾، وجاء الفعل «يَنْظُرُونَ» بصيغة المضارع للإشعار بالحث على تجدد النظر واستمراره إلى دلائل صنع الله وعظيم قدرته؛ ولما جاء الفعل على معنى الإنكار لسبقه بالاستفهام الإنكاري التوبيخي أفاد تجدد الإنكار عند عدم الاعتبار.

دلالة الضمير في «يَنْظُرُونَ»:

يعود ضمير الجماعة في «يَنْظُرُونَ» إلى معلوم من سياق الكلام؛ وهم المنكرون للغاشية أصحاب الوجوه الخاشعة⁽²⁾.

معنى «إِلَى»:

لما كان حرف «إِلَى» لانتهاء الغاية عُدِّي الفعل «يَنْظُرُونَ» بحرف «إِلَى» في قوله تعالى: «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ» للتنبية على وصول النظر وإمعانه إلى ما قرّر له؛ ليشعر الناظر ممّا في المنظور من الدقائق؛ فإنّ قولهم: (نظر إلى كذا) أشدّ في توجيه النظر والوصول إلى انتهاء الغاية منه من قولهم: (نظر كذا)، لما في «إِلَى» من معنى الانتهاء حتّى كأنّ النظر انتهى عند المجرور بـ(إِلَى) انتهاءً تمكّن واستقراراً؛ كما قال تعالى: «فَإِذَا جَاءَ الْحُوفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ» [الأخزاب: 19] وقوله: «إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» [القيامة: 23]⁽³⁾.

دلالة تعريف «الْإِبِلِ»:

«الْإِبِلِ» اسم جمع واحد: بعير، وناقة، وجمل، ولا واحد لها من لفظها⁽⁴⁾. و(أل) في «الْإِبِلِ» في قوله تعالى: «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ» للجنس، فيدخل في اللفظ كل ما يُطلق عليه: إبل. وجيء بصيغة اسم الجمع دون ذكر الواحد كالبعير والناقة مثلاً؛ لأنّ النظر إلى المجموع أزهى وأكثر دلالة على دقّة صنع الصانع ووحدانيّته.

الحث على
إمعان النظر في
مخلوقات الله
للاعتبار والتدبر

النّظر إلى
الإبل مجموعة
أزهى وأكثر
دلالة على دقّة
صنع الصّانع
ووحدانيّته

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضى وكفاية الراضى: 8 / 353، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 304 / 30.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 22 / 13، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 304 / 30.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 304 / 30.

(4) السّريّني، السّراج المنير: 4 / 527.

سِرُّ إِيثَارِ ذِكْرِ ﴿الْإِبِلِ﴾ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ:

اجتمع في الإبل
دون غيرها عِظَمُ
الجَنَّةِ، والصَّبْرُ
والقُوَّةُ وكَثْرَةُ
المنافع

قد يُقال: لِمَ لم يذكر غير الإبل من الحيوانات الضخمة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾؟ والجواب هو أَنَّ القرآن الكريم نزل على قوم لم يعرفوا في الغالب من الحيوانات الضخمة إلا الإبل، كما أَنَّهُ ليس المقصود ذِكْرُ عِظَمِ الجَنَّةِ وقُوَّةِ الحيوان؛ بل المقصود ذِكْرُ ما يمسُّهم في حياتهم؛ فالإبل نُصِبَ أَعْيُنُهُمْ، ويستعملونها في كُلِّ حينٍ، فلها مِن عِظَمِ الجَنَّةِ، وشِدَّةِ القُوَّةِ، وعظيم الصبر على الجوع والعطش ما لا يشاركها فيه حيوانٌ آخر؛ كما أَنَّهُا تحتل المشاقَّ، طويلاً الأعناق لتنهض بالأوقار، وتقطع شاسع المسافات في الصحارى والمفاوز حتى لقبوها: سفينة الصحراء، وهي من ذوات الأربع التي تترك فيحمل عليها الحمولة، وهي تنقاد للصغير والكبير وترعى كُلَّ نابٍ وتحتل العطش إلى عشرٍ فصاعداً؛ فهي أعجب ما عندهم، وهم واقفون على أحوالها، عالمون بطباعها⁽¹⁾؛ فالتنظر في أحوال خلقها أوضح وأسهل وأقرب إلى الاعتبار. بخلاف الفيل مثلاً؛ فَإِنَّهُ لم يكن بأرضهم، ولا يُحمل عليه عادة، ولا يُحلب دُرُّهُ، ولا يؤمن ضُرُّهُ، ولا يتنقل مثل تنقل الإبل في الأرض الممتدة وفي الوديان والصحاري⁽²⁾.

عِلَّةُ الْإِبْدَاءِ بِ﴿الْإِبِلِ﴾ وَتَرْتِيبُ الْمَذْكُورَاتِ:

ترتيب الذكورات
وفقاً لأنصاف
العناية

بدأ الحديث بالإبل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾؛ إذ هي عنصرٌ أساسٌ من حياة أهل البدو في صحرائهم؛ فهي أموالهم ورواحلهم، ومنها مطعمهم ومشربهم وملبسهم، فكانت عنايتهم مصروفةً إليها؛ ثُمَّ لما كان انتفاعهم بها لا يتحصَّل إلا بأن ترعى وتشرب، كان جلُّ مرمى غرضهم نزول المطر، وأهمُّ مسارح النظر

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 308.

(2) العليمي، فتح الرحمن: 7/ 351، والمرآة، تفسير الراعي: 30/ 137.

عندهم هي السماء؛ ثم لما كانوا مضطرين إلى مأوى يؤويهم وإلى حصن يتحصنون فيه ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال؛ ذَكَرَ نَصَبَ الجبال. ثم لما كان عقدُ الهمة عندهم هو التنقل في الأرض؛ ناسب ذكر الأرض كذلك⁽¹⁾. أو يُقال: لما كانت الإبل محطَّ عنايتهم إذ بها أهمُّ مقومات معيشتهم وحياتهم ناسب البدء بذكر الإبل، وانتقل من الإبل إلى ما يروونه أمامهم ليلاً ونهاراً من سماء رفعت بلا عمدٍ، وللسماء عند العرب مكانة خاصة ينظرون إليها نهارهم وليلهم في إقامتهم وظعنهم، يستنزلون منها الغيث ويتعرفون من النجوم ومنازل الشمس أوقات الليل والنهار ووجهة السير، فإذا نزلوا بأنظارهم قليلاً نظروا إلى الجبال الشامخة الثابتة، وكانت الجبال منازل لكثير منهم. وينزلون سفوحها ليكونوا أقرب إلى الاعتصام بها عند الخوف ويتخذون فيها مراقب للحراسة. ثم نزلوا بأنظارهم إلى الأرض وهي تحت أقدامهم وهي مرعاهم ومفترشهم وموضع مهدهم للسير فيها والجلوس والاضطجاع عليها⁽²⁾.

بلغة الاستفهام بـ ﴿كَيْفَ﴾:

عبر باسم الاستفهام ﴿كَيْفَ﴾ الدال على عموم الأحوال والهيئات في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؛ للإشعار بأن جميع أحوال ما قيّد به اسم الاستفهام هو محل نظر، وأنه يورث معرفة الصانع ووجدانيته وقدرته وحسن تدبيره. ففي التعبير بـ ﴿كَيْفَ﴾ حث على النظر إلى جميع أحوال خلق الإبل؛ أي إن أحوالها متنوعة عجيبة. والمعنى: (أفلا ينظرون إلى الإبل هيئة خلقها).

دلالة مجيء جملة ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ بدلاً من ﴿الْإِبِلِ﴾:

لما كانت جملة ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ بدل اشتمال من ﴿الْإِبِلِ﴾⁽³⁾؛ كان

الحث على
النظر إلى جميع
أحوال خلق
الإبل لتنوعها
وغرابتها

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 257.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 306 / 30.

(3) السمين، الدرر للصون: 770 / 10، وابن عادل، اللباب: 301 / 20.

النَّظَرُ يَكُونُ إِلَى
الإِبْلِ نَفْسِهَا مَعَ
مَزِيدٍ اعْتِنَاءٍ إِلَى
النَّظَرِ إِلَى حَالِ
خَلْقِهَا وَهَيْئَتِهِ

بَيَانُ أَظْهَرَ الْأَدَلَّةِ
عَلَى خَلْقِ اللَّهِ
وَوَحْدَانِيَّتِهِ

المعنى: (أفلا ينظرون إلى الإبل هَيْئَةً خَلَقَهَا). وعبر بأسلوب مجيء
البدل والمبدل منه ولم يقل مثلاً: (أفلا ينظرون إلى هَيْئَةِ خَلْقِ الإبل
أو إلى أحوالِ خَلْقِ الإبل)؛ لأنَّ المقامَ مقام إنكارٍ وتعجيبٍ من عدم
النَّظَرِ إليها نظر تدبُّرٍ واعتبارٍ؛ فافتضى الاعتناء بشأنها؛ فذكرَ
البدل ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، ليظهر بمجموع القصدين - أي: البدل
والمبدل منه - مزيد اعتناء بشأن الإبل وخلقها، ففي التعبير إيماءً
إلى أنَّ النَّظَرَ يكون إلى الإبل نفسها مع مزيد اعتناء إلى النَّظَرِ إلى
حالِ خلقها وهَيْئَتِهِ. فالبدل والمبدل منه مقصودان بالنَّظَرِ.

سُرُّ تَقْيِيدِ الاستفهام بقيد ﴿خُلِقَتْ﴾ و﴿رُفِعَتْ﴾ و﴿نُصِبَتْ﴾ و﴿سُطِحَتْ﴾:
لَمَّا كَانَ الاستفهام بالأداة ﴿كَيْفَ﴾ على معنى السَّوَالِ عن
الحالِ والهَيْئَةِ، وَلَمَّا عُلِّقَ الْفِعْلُ ﴿خُلِقَتْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا
يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ عَمَّا فِيهِ الْاِسْتِفْهَامُ، لَمْ يَبْقَ
الْاِسْتِفْهَامُ عَلَى حَقِيقَتِهِ⁽¹⁾. فَالْاِسْتِفْهَامُ مُجَازِيٌّ يُقْصَدُ بِهِ التَّعْجِيبُ
مِنْ عُمُومِ أَحْوَالِ خَلْقِ الْإِبْلِ؛ وَمِثْلُهُ يُقَالُ فِي الْاِسْتِفْهَامَاتِ التَّالِيَةِ.
وَلَمَّا كَانَ الْاِسْتِفْهَامُ الْمُجَازِيٌّ فِي سِيَاقِ الْإِنْكَارِ عَلَى الْكَافِرِينَ أَهْلَ
الشَّقَاءِ كَانَ الْإِنْكَارُ عَلَى عَدَمِ نَظَرِهِمْ إِلَى مَا قَيَّدَ بِهِ الْاِسْتِفْهَامُ
بِ﴿كَيْفَ﴾؛ وَهُوَ النَّظَرُ إِلَى أَحْوَالِ الْإِبْلِ وَالسَّمَاءِ وَالْجِبَالِ وَالْأَرْضِ
بِالْكَفَيَّاتِ الْمَعْدُودَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، و﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾،
و﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، و﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾؛ أَي: لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى دَقَائِقِ
هَيْئَاتِ خَلْقِ الْإِبْلِ، وَهَيْئَاتِ رَفْعِ السَّمَاءِ، وَهَيْئَاتِ نَصْبِ الْجِبَالِ،
وَهَيْئَاتِ سَطْحِ الْأَرْضِ؛ فَإِنَّ النَّظَرَ إِلَى أَحْوَالِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ
بِالْهَيْئَاتِ الْمَذْكُورَةِ أَقْرَبَ إِلَى ظُهُورِ الْحُجَّةِ عَلَى قُدْرَةِ الصَّانِعِ
وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَالْإِذْعَانِ لَهَا؛ بِمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ فِي كُلِّ نَوْعٍ أَظْهَرَ
دَلِيلٍ عَلَى خَلْقِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ.

(1) أبو حيان، البحر المحیط: 465/10، والبقاعي، نظم الدرر: 15/22.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿خُلِقْتُ﴾ دلالةً وصيغةً:

عُبِّرَ بالفعل ﴿خُلِقْتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقْتُ﴾ للإشارة إلى أَنَّ النَّظَرَ في هيئَةِ خَلْقِ الْإِبْلِ يورث معرفة الخالق وكمال قدرته تعالى وحسن تدبيره. ولما كان المقصود النَّظَرُ إلى أظهر دليل يدلُّ على الخالق ووحدانيته وحسن تدبيره عبَّرَ بمُفْرَدَةِ ﴿خُلِقْتُ﴾ دون غيرها؛ للإشارة إلى أَنَّ جميعَ أحوالِ خَلْقِ الْإِبْلِ يدلُّ على الخالق ووحدانيته وبراعة صنعه وتدبيره؛ ففيه إشارة إلى أَنَّ الكافرين كأنَّهم لم ينظروا إلى أيِّ حالٍ من أحوالِ خَلْقِ الْإِبْلِ نَظَرَ تَدَبُّرٍ واعتبارٍ؛ فاستحقوا الإنكار عليهم وتوبيخهم وتقريعهم. وفي التعبير بالفعل ﴿خُلِقْتُ﴾ كذلك حُتُّ على النَّظَرِ إلى جميعِ أحوالِ خَلْقِ الْإِبْلِ وحسن تناسقه وبداع صنعه؛ وجاء الفعل بصيغة المبني للمفعول لأنَّ الكلامَ مسوقٌ إلى أَنَّ النَّظَرَ في الأثر يورث معرفة الصَّانع؛ فمَجَرَّدُ النَّظَرِ في هيئَةِ خَلْقِهَا يورث العلم بالفاعل وإحاطة علمه وعظيم قدرته وحسن تدبيره.

بلادةً الوصل بالواو في الآيات:

مناسبة الوصل في الجُمْلِ ﴿إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقْتُ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ واضحةٌ جليَّةٌ، فهي جميعاً قريبةٌ من أبصارهم، تنتظم في نظر جمهور العرب الذين نزل فيهم القرآن من أهل تهامة والحجاز ونجدٍ وأمثالها من بلاد أهل الوبر والانتجاع. وتنقُلُ النَّظَرُ بين هذه المخلوقات تنقُلُ مُنْسَابٌ من غير تكلفٍ لارتباط بعضها ببعض في حياة المُخَاطَبِينَ وقت نزول القرآن؛ فناسب عطف بعضها على بعضٍ لوجود الجهة الجامعة بينها؛ فالجمع بين الإبل والسَّمَاءِ والجبال والأرض بما قيِّدت به على مجرى الإلف والعادة في حياة مَنْ نزل فيهم القرآن المجيد.

النَّظَرُ إِلَى الْخَلْقِ
يُوصَلُ إِلَى
مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ

مناسبة
الجمع بين
الإبل والسَّمَاءِ
والجبال والأرض
لطبيعة حياة
العرب

معنى (إلى) وسبب تكرارها:

التعجب من
عدم النظر إلى
مخلوقات الله
مع قربها وظهور
دلائلها

عُبر بحرف الجرّ (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ للتنبية على وصول النظر وإمعانه إلى المنظور إليه وهو كيفية رفع السماء؛ بمعنى أن يكون على جهة التمكن من النظر، وكُرّر حرف الجرّ للإشعار باستقلال كلّ منظور في الحثّ على النظر إليه، وبأنّ كلّ ما دُعي إلى النظر إليه قريب من أنظارهم لا يغيب عنهم، فيتقرّر معنى التعجب من عدم نظرهم وانتفاعهم.

دلالة ذكر ﴿السَّمَاءِ﴾ بصيغة المفرد:

عُبر بلفظ ﴿السَّمَاءِ﴾ بصيغة المفرد في قوله تعالى: ﴿وَالِى السَّمَاءِ﴾؛ لأنّ الكلام في سياق الاستدلال على الخالق، و(أل) في ﴿السَّمَاءِ﴾ عهدية؛ أي: إلى السماء المعهودة عندهم التي لا تغيب عن أنظارهم.

بلاغة تكرير الاستفهام بـ ﴿كَيْفَ﴾:

تكرّر اسم الاستفهام المجازي ﴿كَيْفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ للإشارة إلى اختلاف أحوال خلق الإبل عن أحوال رفع السماء، وأحوال نصب الجبال، وعن أحوال سطح الأرض؛ فتنوّعت الأحوال ومآلاتها في الاستدلال على الخالق ووحدانيّته.

نكتة التعبير بمفردة ﴿رُفِعَتْ﴾:

عُبر بمفردة ﴿رُفِعَتْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ للإشعار بأنّ هيئة رفع السماء ممّا يُتَعَجَّب منه، لكونها بعيد المدى، بلا إمساك وبغير عمدٍ ترونها؛ وأنّ رفعها بهذه الهيئة لا يكون إلّا من خالقٍ قادرٍ حكيم في صنعه وتدبيره؛ فالسّماء قد رُفِعَتْ مع ما لها من السّعة والكبر والثقل والإحكام، وما فيها من النّجوم والكواكب المتنوّعة المتعدّدة. والبناء للمفعول دليلٌ حصولها بأيسر أمر⁽¹⁾.

هيئة رفع
السماء أمرٌ
عجيب يدلّ على
قدرة رافعها
وحسن تدبيره

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/22.

توجيه العطف بالواو:

لما ذكرَ العاليَ من الحيوانِ - وهو الإبل - الملبسِ للإنسانِ،
والعاليَ من الأكوانِ - وهو السماءَ -، أتبعه ذَكَرَ أعلى الأرضِ فقال
تعالى: ﴿وَالِىَ الْجِبَالِ﴾⁽¹⁾.

دلالة تعريف ﴿الْجِبَالِ﴾ وجمعه:

(أل) في ﴿الْجِبَالِ﴾ للعهد؛ أي: (الجبـال المعهود عندهم المنظور
إليها بأبصارهم)، وجاء ذَكَرَ ﴿الْجِبَالِ﴾ بصيغة الجمع؛ لأنَّ النَّظَرَ
إلى هيئة الجبال وأحوالها بمجموعها أدلُّ على المطلوب، وذلك
بتنوع أحوال شموخها وارتفاعها وثباتها؛ فهي عاليةٌ جدًّا على بقيَّة
الأرض بلا موجبٍ فيها لذلك من طبيعةٍ ولا غيرها، بل بفعلِ الفاعلِ
المختارِ فهي راسخةٌ ثابتةٌ لا تميلُ، وبها مع ذلك ثبتت الأرضُ
وحُفظت من الميْدِ⁽²⁾.

النَّظَرُ إلى هيئة
الجبال وتنوع
أحوال شموخها
وثباتها أدلُّ على
المطلوب

نكتة التعبير بمفردة ﴿نُصِبَتْ﴾:

عبر بمفردة ﴿نُصِبَتْ﴾ للدلالة على أنَّها وضعت قائمةً ثابتةً
بحيث إنَّ رؤوس الجبال تكون ناتئةً بالنَّظَرِ إلى أسفلها، وفي المفردة
إشارةٌ إلى انتفاعهم من الجبال بكونها علامات لهم في الأرضِ،
فإنَّ النُّصْبَ جماعةُ النَّصِيبَةِ، وهي علامةٌ تُنْصَبُ للقومِ⁽³⁾.

دلالة تعريف ﴿الْأَرْضِ﴾:

(أل) في ﴿الْأَرْضِ﴾ للعهد؛ فالمراد: الأرض المعهودة عندهم،
وهي أرضُ كلِّ قومٍ لا مجموع الكرة الأرضية⁽⁴⁾ بقريضة قيد الفعل
﴿سُطِّحَتْ﴾.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22 / 16.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 22 / 16.

(3) الأزهرى، تهذيب اللغة: (نصب).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30 / 306.

نكتة التعبير بمفردة «سُطِحَتْ»:

الأرض موطن
الاستقرار
والانتفاع
والسعي
لتحصيل الرزق

عبر القرآن الكريم بالفعل «سُطِحَتْ» للإشارة إلى موضع الانتفاع من الأرض، والمعنى: (كَيْفَ سَوَّيْتُ وَبُسِطَتْ بحيث يسطح عليها حتى صارت مهادًا موضوعًا وبساطًا ممدودًا يمشى عليه بغاية السهولة)، وإنما ذكر الأرض بحال سطحها، ولم يَقُلْ: (كيف مُدَّتْ أو كيف بُسِطَتْ)؛ لأنه ليس المقصود بيان خلقها على هذا التَّمَطُّ البديع؛ بل المقصود بيان عَظَمَةِ الصَّانِعِ في هيئة خلقه وحسن تدبيره وقدرته على البعث مع الامتثال على العباد فيما خلق، فكما أَنَّ السَّمَاءَ رفعت والجبال نصبت؛ فهذه الأرض سُطِحَتْ؛ ولو كانت كلها جبالاً أو أسنمة كأسنمة الإبل، لما أمكن الانتفاع بها والسير فيها. فهي مع ارتفاع بعض أجزائها، قد سطحت أكثر أجزائها، ليستقرروا فيها بحيث يليق أن يُنتَفَعَ بها مشياً عليها والزراعة وغرس الأشجار فيها؛ لتكون مهادًا للناس، وبساطًا ممدودًا لمرعاهم ومفترشهم⁽¹⁾.

❁ الفرق المُعْجَمِيَّة:

النَّصَبُ وَالرَّفْعُ:

النَّصَبُ يدلُّ
على التَّماسكِ
والتَّباتِ بقوة،
وَالرَّفْعُ على
الْعُلُوِّ مع وجود
فراغٍ

الفرق بينهما أَنَّ (النَّصَبَ) بمعنى إقامة الشيء إلى أعلى قوياً متماسكاً على وضع مستقيم دائم، بحيث يكون قائماً على شيء ثابت لا يميل به، ويكون ناتئاً بالنسبة إلى أسفله. وأمَّا (الرَّفْعُ) فإنه يأتي بمعنى، منها تطويل البناء وإقامته إلى علو. فأوثر استعمال لفظ «نُصِبَتْ» للجبال لما يدلُّ عليه اللفظ من جعل الجبال قائمة متماسكة في وضع مستقيم ثابتة في نصبها رفيعة في رؤوسها قائمة على قاعدة واسعة. وقد استعمل (الرفع) مع السماء؛ لأنَّ الرِّفْعَ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 1543 / 16.

يقتضي فراغاً لما دونه، ويُقال في الأجسام الموضوعة إذا أُعْلِيَتْ عن مَقَرِّهَا⁽¹⁾، فالسَّماء مرفوعة وبينها وبين الأرض فراغٌ.

السَّطْحُ والبَسْطُ:

(السَّطْحُ) يدلُّ على بَسْطِ الشَّيْءِ وَمَدِّهِ⁽²⁾، بحيث يكون مُهَيَّئاً للمهاد والمعاش والافتراش، و(البسط) نشر الشَّيْءِ وتوسيعه، ومنه: بساط الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ [نوح: 19] والبساط: الأرض المتَّسعة⁽³⁾.

السَّطْحُ يدلُّ
على بَسْطِ
الشَّيْءِ وسَعْيِهِ
وَمَدِّهِ لِيَكُونَ
مُعَدًّا لِدُنْفَاعِ
عليه

(1) الرَّاغِبُ، الْفُرْدَاتُ: (رفع).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سطح).

(3) الرَّاغِبُ، الْفُرْدَاتُ: (بسط).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والستون،
سورة الأعلى من الآية 06 إلى سورة العلق
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والستون، سورة الأعلى من الآية 06 إلى سورة العلق
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 67، 810 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-69-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 67 : المجلد السابع والستون، سورة الأعلى من الآية 06 إلى سورة العلق.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-69-3

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-4934554 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"